# الفصل الأول

## الفكرُ في المصادر الإسلامية

مقدمة

أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية

ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي

ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران

رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل

خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي

سادساً: الفكر والعاطفة

خاتمة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

# الفكرُ في المصادر الإسلامية

**مقدمة:**

لعلّ من المناسب أن نبدأ الفصل الأول من هذا الكتاب "البناء الفكري" بالتأكيد على أننا نتحدث عن الفكر الإسلامي، لذلك فإنّ مرجعيتنا في هذا الحديث هي المرجعية الإسلامية في مصادرها التأسيسية في القرآن الكريم والسنة النبوية أولاً، ثم في فهم علماء الإسلام عبر العصور للقرآن والسنة، وهو ما نسميه التراث الإسلامي. مؤجلين أيَّ ذكر لفهم آخر إلى فصول لاحقة. وحتى لا تنحصر دلالة الفكر إلى شيء مما جرى التأكيد عليه في التراث الإسلامي من انشغال القلب بتوحيد الله سبحانه والزهد بالدنيا، عن عمران الأرض بشريعة الله، وتحقيق الأمن والعدل فيها، جاء الاستدراك على بعض صور الفهم التي ربما توحي بها بعض نصوص التراث، للتأكيد على أنَّ تلك النصوص كتبت في ظل المجتمع المسلم، حيث كانت تتكامل فيه حقائق التوحيد والتزكية والعمران، وكان لكلٍّ مجال من هذه المجالات روَّاده ومختصوه. ثم تطرق الفصل إلى مصطلح الفكر الإسلامي بوصفه مصطلحاً حديثاً، كانت ألفاظ العلم والفقه تغني عنه سابقاً، رغم أن لفظ الفكر والتفكر كان رائجاً في جميع علوم الملة. واختتم الفصل بلمحة موجزة عن الفكر والعاطفة، للتأكيد على أنَّ الأفكار لا تكون مجردة عن المشاعر، فالفكر البشري هو وعي الإنسان بذاته وبمحيطه، ومشاعر الإنسان عنصر أساس من عناصر هذه الذات لها موقعها في اتخاذ أي قرار أو القيام بأي عمل.

سوف يلاحظ القارئ أننا لم ننشغل كثيراً بمعاجم اللغة وقواميسها، لبيان دلالة الألفاظ التي تعرَّضْنا لها في هذا الفصل؛ ذلك لأننا نرى أن

لغة القرآن الكريم تكفي في ذاتها لبيان الدلالة التي توحي بها هذه اللغة، ونحن نحتاج في كثير من الأحيان معاجمَ اللغة لفهم اللغة البشرية أكثر مما نحتاجها لنفهم لغة القرآن الكريم، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقد قصرنا الحديث في هذا الفصل على مفهوم الفكر والمفاهيم ذات العلاقة به، ونأمُل أن يكون ذلك مقدمة مناسبة للحديث عن البناء الفكري في الفصل الآتي.

## أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية

الفِكْرُ تعبيرٌ عن فِعْل يقومُ به الإنسانُ، وهو اسمٌ لثمرة هذا الفعل؛ فهو من جهةٍ: فِعْلُ العقْلِ، أو إعمالُ النظرِ، أو عمليةُ التفكُّر، وهو الاسم الذي يُطلق على نتيجة الفعل وثمرتِه، وأصله الفعل الثلاثي (فَكَرَ) ومعناه أعْمَلَ العقْلَ، وفَكَّرَ يُفَكِّرُ تفكيرًا، أي: مارس نشاطه الذِّهنيّ، فهو مُفكِّرٌ، والمفعولُ مفكَّرٌ فيه، وفكَّر في الأمر، وتفكَّر فيه بمعنى تأمّل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨].

والفِكرُ جمعه أفكارٌ، والتفكيرُ هو عمليةُ إعمالِ العقلِ في المعلوم للوصَول إلى معرفة مجهولٍ، وقد وردت مادة الفكر في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعاً في خمس صيغ، كلها في صيغة الفعل. وهي على النحو الآتي:

- فكّر، مرة واحدة (المدثر: ١٨).
- يتفكّروا، مرتين (الأعراف: ١٨٤)، (الروم: ٨).
- تتفكّروا، مرة واحدة (سبأ: ٤٦).
- يتفكّرون، إحدى عشرة مرة، (آل عمران: ١٩١)، (الأعراف: ١٧٦)، (يونس: ٢٤)، (الرعد: ٣)، (النحل: ١١، ٤٤، ٦٩)، (الروم: ٢١)، (الزمر: ٤٢)، (الجاثية: ١٣)، (الحشر: ٢١).
- تتفكّرون، ثلاث مرات، (البقرة: ٢١٩، ٢٦٦)، (الأنعام: ٥٠).

وواضح أن التفَكُّر بالتشديد لا يعني مجرد وُرُود الخاطر في الذهن، بالصورة العادية، وإنما يعني: الوعي، والمتابعة، والمعاودة. يقول ابن عاشور في تفسيره: "والتفكُّر: تكَلُّف الفِكرةِ، وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبر في دلالة الأدلة على الحقائق."(١)

ونكتفي في هذا المقام بالتذكير بقوله سبحانه:﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ...﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]. ففيها بيان أن التفَكُّر لا يقتصر على أمور الآخرة وما يتصل بعلاقة الإنسان بربه طلباً للأجر والثواب في الآخرة، وإنما يكون في مسائل الدنيا كذلك، مما يعود بالخير على الفرد والمجتمع والأمة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. يقول ابنُ عاشور في تفسير قوله تعالى:﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ليحصل للأمة تفكّرٌ وعلمٌ في أمور الدنيا وأمور الآخرة، لأنَّ التفَكُّرَ مظروفٌ في الدنيا والآخرة، فتقدير المضاف لازمٌ بقرينةِ قولِه: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ إذ لا معنى لوقوع التفَكُّر يوم القيامة، فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب، والثواب والعقاب لكان بياناً للتفَكُّر في أمور الآخرةِ خاصة، ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار، بأن قيل: قل فيهما نفع وضر، لكان بياناً للتفَكُّر في أمور الدنيا خاصة، ولكن ذكرَ المصالح والمفاسد والثواب والعقاب تذكيرٌ بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا."(٢)

كما ورد معنى الفِكْرِ والتفَكُّر في مواضع كثيرة أخرى بصيغة الفعل كذلك، ولكن بألفاظ أخرى مثل: التدبّر والاعتبار، والعقل، والنظر، نكتفي بقوله سبحانه:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]. قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم، وكان كلُّ ذلك لأجل أنَّهم ما كانوا يعتقدون كونه محقاً في ادعاء الرسالة صادقاً فيه، بل كانوا يعتقدون أنه مُفْتَرٍ متخرِّص، فلا جَرَم أمَرَهم

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ج٢٤ ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ج٢ ص.٢٥٣.

الله تعالى بأن ينظروا ويتفكروا في الدلائل الدالة على صحة نبوته... التدبير والتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور."[1] وقال الشوكاني في فتح القدير: "أفلا يتدبرون: للإنكار، والفاء للعطف على مقدر؛ أي: أيُعْرِضُون عن القرآن فلا يتدبَّرُونه، يقال: تدبَّرْت الشيء؛ تفكَّرت في عاقبته وتأمَّلْتَه، ثم استعمل في كل تأمل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، ودلت هذه الآية، وقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه."[2] وقال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن ﴾ التدبر: هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وتدبر الكلام: هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له."[3]

وبإيجاز شديد، يمكن أن نستنتج من مجمل آيات القرآن الكريم الواردة في التفَكُّر مجموعة من الدلالات المحددة، تتضمن أربعة عناصر أساسية هي عملية بذل الجهد العقلي، والطريقة التي يتم فيها الجهد المبذول، والموضوع أو المادة التي تكون موضوع التفكر، والهدف أو النتيجة المتحققة من التفكر.

وبعبارة أخرى، نميِّز في عناصر التفكر:

١- عملية بذل الجهد الفكري، أو إعمال الفكر والعقل في أمور معلومة، لتحقيق أهداف وغايات ومقاصد محددة جديدة.

٢- وهو عملية تتم بتكرار الانشغال بالهم الفكري ومعاودته ومواصلته،

---

(١) الرازي، فخر الدين محمد. **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م، ج١٠، ص٢٠١.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، المنصورة: دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٠م، ج١، ص٧٨١.

(٣) رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٩٧٣م، ج٥، ص٢٨٧.

حتى تتحقق النتائج المرجوة.

٣- وثمة مادة للتفَكُّر يلزم فيها استجماع الذهن والخاطر على عناصرها، وتفاصيل موضوعها ودقائقه.

٤- والمهم هو نتيجة التفكر، وذلك هو تحقق الهدف المنشود من إعمال الفكر، ومما ينطوي عليه الهدف الاعتبار أو أخذ العبرة، وهي كسب جديد في العلم، وكسب في العمل بموضوع العلم.

أما عن مادة الفكر في الحديث النبوي الشريف، فقد وردت في غير ما موضع من كتب الصحاح والسنن والمسانيد، جاءت في بعضها بنص القرآن، وتتنوع معانيها بين لفظ العقل والنظر والتدبر، فقد ورد لفظ الفكر في تصنف المحدث ولغتِه، في كُتُبِ وأبواب كلٍّ من صحيح البخاري وصحيح مسلم، وغيرهما من كتب الحديث كالسنن والمسانيد.[١] كما ورد اللفظ على لسان الراوي من الصحابة، وورد بنص الآيات القرآنية الذي يذكرها الحديث الشريف.[٢] وكما هو

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢م، كتاب العمل في الصلاة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، ص ٢٩٥ حديث رقم (١١٢١)، وقد جعل البخاري عنوان الباب بهذه الصورة، وبدأ الباب بقول عمر بن الخطاب ﷺ: إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة. ثم روى حديث عقبة بن الحارث ﷺ قال: "صليت مع النبي ﷺ العصر، فلما سلَّم قام سريعاً دخل على بيت بعض نسائه، ثم خرج ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: ذكرت -وأنا في الصلاة- تبراً عندنا فكرهت أن يمسي -أو يبيت- عندنا، فأمرت بقسمته."

(٢) وفي صحيح ابن حبان عن عطاء قال: ".. وفيه قال عبيد ابن عمير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ... وفيه "فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعليه جنوبهم، ويتفكرون ... الآية" انظر:
- الفارسي، علاء الدين علي بن بلبان. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، كتاب الرقاق، باب التوبة، ج٤، ص٣٨٦ حديث (٦٢٠) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

الحال في القرآن الكريم فإنَّ معنى الفكر قد ورد في مواقع كثيرة بألفاظ العقل والنظر والتدبر. ومما هو معروف من الآثار التي ورد فيها لفظ التفَكُّر حديث ابن عباس رضي الله عنه: "تفكَّروا في كلِّ شيءٍ ولا تفكَّروا في ذات الله."[1] وفي حديث ربيعة بن كعب الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده، يقول: "...ففكَّرت في نفسي فعرفت أنَّ الدنيا منقطعةٌ وزائلة..." وفي رواية أخرى للحديث: "ولكني نظرتُ في أمري فرأيت أن الدنيا زائلة...". ويتبيّن من الروايتين أنَّ النظر جاء في موقع التفَكُّر.[2]

---

(١) يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في: "فتح الباري": حديث ابن عباس: موقوف وسنده جيّد. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(٨٥٣ هـ). **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٤، (١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل، حديث رقم ٧٤٠٢، ج١٣، (مجلد ١٤)، ص٣٢٦.

(٢) يروي الأمام أحمد بن حنبل في مسنده عن ربيعة بن كعب، قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع، حتى يصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيته، أقول لعلّها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمعه يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده، حتى أملّ فأرجع، أو تغلبني عيني فأرقد، قال: فقال لي يوماً لما يرى من خفتي في خدمتي إياه: سلْني يا ربيعة أُعْطِك. قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله، ثم أُعْلِمُك بذلك، ففكَّرت في نفسي فعرفت أنَّ الدنيا منقطعةٌ وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني ويكفيني، قال فقلت أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به، قال: فجئت، فقال: ما فعلت يا ربيعة؟ فقلت: نعم يا رسول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار؟ قال: فقال: من أمرك بهذا يا ربيعة؟ قال، فقلت لا والله الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكني لما قلتَ: سلني أعطك، وكنت من الله في المنزل الذي أنت فيه، نظرت في أمري وعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني، فقلت: أسألُ رسولَ الله ﷺ لآخرتي، قال: فصمت رسولُ الله ﷺ طويلاً، ثم قال لي: إني فاعل، فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود." انظر:

- ابن حنبل، الإمام أحمد، **مسند أحمد بن حنبل**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، مسند المدنيين، حديث (١٦٦٩٥) ص ١١٨٤ "وللحديث رواية أخرى يقول فيها الصحابي: "ولكني نظرتُ في أمري فرأيت أنَّ الدنيا زائلة..." انظر:
- المرجع نفسه والصفحة نفسها، حديث رقم (١٦٦٩٤).

## ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي

ورد مصطلح الفكر والتفكر بوصفه عملية ونتاج هذه العملية، وذلك في كثير من كتابات العلماء في التراث الإسلامي. ورد في عناوين بعض مؤلفاتهم، نظراً لأن الجهد الذي كان يقوم به المؤلف إنما هو نتاج فكره في موضوع الكتاب، ولا يعني ذلك بالضرورة أنَّ الفكر هو موضوع الكتاب، ومن ذلك الكتب الآتية:

١- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار للحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دمشق: دار ابن كثير الطبعة الثانية ٢٠٠٨م. والكتاب في تخريج أحاديث الأذكار.

٢- نتائج الأفكار القدسية في بيان شرح معاني الرسالة القشيرية لزكريا الأنصاري الشافعي (حاشية مصطفى العروسي) القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.والكتاب في شرح الرسالة القشيرية.

٣- نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار، هامشه: العناية على الهداية، حاشية السعدي على شرح العناية، شمس الدين أحمد بن قودر قاضي زاده أفندي، وبهامشه: أكمل الدين البايرتي، سعدي جلبي سعد الله بن عيثي المثني، طبع المطبعة الكبرى الأميرية، مصر سنه ١٣١٧هـ.

٤- نتائج الفكر وثمر المؤلفات أحمد بن يونس الخليفي، القدس: المكتبة البريدية، ١٨٢٧م.

٥- نتيجة الفكر في الجهر بالذكر للحافظ السيوطي، بيروت: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢م. وهو كتاب في الفقه.

٦- حسن نتائج الفكر في كشف أسرار المختصر للزرقاني عبد الباقي بن

يوسف، مخطوطات مكتبة جامعة الملك فيصل، الإحساء، المملكة العربية السعودية. وهو كتاب في الفقه.

٧- نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح شرح معاني الآثار تأليف الإمام الحافظ المحقق بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (٧٦٢ - ٨٥٥ ه) تحقيق: السيد أرشد المدني، جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ٢٠١١م. وهو كتاب في الفقه.

٨- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المؤلف: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (١١٨٢ه)، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ٢٠١٠م. وهو كتاب في الفقه.

ومع أن لفظ الفكر ولفظ الأفكار وردا في عناوين هذه العينة من الكتب، فإنَّ أياً منها ليس كتاباً عن موضوع الفكر والتفكير والأفكار. ومع ذلك فإنه يندر أن نجد مؤلفاً من مؤلفات التراث الإسلامي لا يتضمن إشارة إلى ضرورة التفَكُّر والتدبر، سواءً من كتب العقيدة والكلام، أو كتب الفقه والأصول، أو كتب التفسير، فضلاً عن كتب التزكية والتصوف. لكن مؤلفات كثيرة جعلت من الفكر موضوعاً لها، أو تضمنت فصولاً عن موضوعات الفكر والتفكر، والعقل والتعقل، والذكر والتذكر. وسوف نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة من أهل العلم بينهم أزمان متباعدة، ولكل منهم نشأته ومدرسته وظروفه، ومع ذلك فإن عرضهم لقضايا العقل والتفكر تكاد تكون متطابقة. وهؤلاء هم الحارث المحاسبي (٢٤٣ه)، وأبو حامد الغزالي (٥٠٥ه)، وابن قيم الجوزية (٧٥١ه). ونلاحظ أن بين الأول والثاني نحو قرنين ونصف من الزمان، وبين الثاني والثالث نحو قرنين ونصف كذلك.

أوّل هؤلاء العلماء الحارثُ المحاسبي الذي تحدث عن العقل ومعانية واختلاف الناس فيه، وأصبح هذا الكتاب منهجه في كتاباته الأخرى، وثانيهم أبو حامد الغزالي الذي كتب فصلاً نفيساً بعنوان "كتاب التفكر" وهو الكتاب التاسع

من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين. وثالث الثلاثة هو ابن قيم الجوزية الذي خصص كتاباً كبيراً في العلم والتفكر هو كتاب "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة".

واحد من كتب الإمام المحاسبي المنشورة، كان بعنوان "كتاب العقل وفهم القرآن"[1] وهو في الأصل كتابان، الأول "ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"، والثاني "فهم القرآن ومعانيه". أما الأول فيبدو أن الحارث المحاسبي أوضح فيه موقفه من الجدل الذي كان يدور حول صحة الأحاديث المروية بشأن العقل، وذلك في رد فعل على ثقافة العصر الذي عاش فيه، وكان يُعدُّ عصر الاعتزال، وإذا كان المعتزلة ينوِّهون بموقع العقل في الدين، ويستندون إلى أحاديث مروية عن العقل، فإن المحدثين بزعامة الإمام أحمد بن حنبل، يواجهون المعتزلة بإنكار صحة هذه الأحاديث. أما موقف المحاسبي الذي بدأ حياته محدِّثاً، فرأى أنّ هذه الأحاديث تتفق مع دلالة الآيات القرآنية، وأن الصحابة والتابعين وتابعيهم رَوَوْا أقوالاً في العقل لا تخرج عن سياق تلك الأحاديث. وهو في طريقته في هذا الكتاب الصغير في حجمه "العقل" مثل طريقته في كتابه الكبير "الرعاية لحقوق الله" يبدأ بالقرآن الكريم، ثم بالسنة النبوية، ثم بالآثار المروية عن الصحابة والتابعين، ويؤكد بناءً على ذلك ضرورة أن "يَعْقِل" المؤمن ما جاء في كتاب الله؛ أي أن يتقن فهمه وبيانه، ولذلك نجد عبارته عن فعل العقل تكاد تتكرر في كل فقرة من الكتاب "عَقَلَ عن الله ..."فالفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان."[2]

ويختم المحاسبي كتاب العقل بتوضيح دلالة العقل ومعناه ومركزيته في عمل الفرد الإنساني، فيقول: "ولا غَنَاء بالعبد عن التفكير والنظر والذكر، ليكثر

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). **العقل وفهم القرآن**، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوّتلي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.

اعتبارُه ويزيدَ علمُه، ويعلوَ في الفضل، فمن قلّ تفكُّرُه قلّ اعتبارُه، ومن قل اعتباره قلّ علمُه، ومن قلّ علمه كثُرَ جهلُه، وبان نقصُه، ولم يجد طعمَ البِرِّ، ولا بَرْد اليقين، ولا روحَ الحكمة. وما بلغ عِلْمُ من درس العلم بلسانه وحفِظَ حروفَه بقلبه، وأضْرَبَ عن النظر والتذكر والتدبر لمعانيه وطلب بيان حدوده... وأيّ سرور ظفِرَ به يعدلُ سرور العلم، وروح اليقين وعظيم المعرفة وكثرة الصواب، والظفرَ الذي لا يثبت ولا يُنال إلا بحسن النظر وطول التذكر وتكرار الفكر."[1]

وفي كتاب "فهم القرآن" يبدأ المحاسبي بالحديث عن خلق الله سبحانه للخلق، واصطفاء "آدم وذريته، فأخذ منهم الميثاق بما فطرهم عليه من العقول الرضية، والألباب والفهم، ليدّبروا بها شواهد التدبير، وأحكام التقدير، فألزمهم بذلك حجة من عقولهم." ثم وضع عنواناً "في العقل" وأضاف فيه: "وأنه خاطبهم به من قِبَل ألبابهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنه جعل العقول معادن الحكمة ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار... ولم يعطهم الله عز وجلّ اليقين به وبما قال عن رؤيةٍ منهم لربهم، ولا معاينةٍ منهم لما وعد وتوعد، ولكن عن الفهم بما قال جلّ وعزّ في كتابه، بالتذكير والتفكير والتثبيت والتدبير، فردّدوا النظر، وأجالوا الفكر، وكرروا الذكر، وتدبروا العواقب..."[2]

"ثم أخبرهم أنه أنزل كتابه ليدّبّروا آياته بعقولهم ويتذكّروا ما قال بألبابهم، ...ثم قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فأخبرَ أنَّه أنزله للتذكُّر والتفكُّر فيه، وخصَّ بالتفكر والتذكر أهل العقول، أولي الألباب."[3]

وفي كتابه الأكبر حجماً والأكثر شهرة، "الرعاية لحقوق الله" يقول المحاسبي في مطلعه تحت عنوان "باب في أول ما يجب على العبد معرفته والتفكر فيه"

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٥.

"قلت: فما أوَّلُ ما تأمرني أن أبتدئ به؟ قال: أن تعلم أنك عبدٌ مربوبٌ... فتذكر وتفكَّر لأيّ شيء خُلقت... فإذا علمت أنَّك عبدٌ مربوب، ثم عَقَلْتَ لِمَ خُلِقْت... عَلِمْتَ أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة مولاه، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه عز وجل العلم، ثم العمل بأمره ونهيه... لأن الطاعة سبيل النجاة، والعلم هو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء. قلت: فبم يُنال الخوف والرجاء؟ قال تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد...

قلت: وبم يُنال التخويف؟ قال: بالذكر والفكر في العاقبة؛ لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوّفه ورجاه لن يخاف إلا بالذكر والفكر...

قلت: قد تخفى عليّ الفكرة ولا أعرف طريقها، فما الذي يفتحها؟ قال: اجتماع الهمّ مع المطالبة بالعقل، والتوكل على الربّ لا على العقل... فحضور العقل باجتماع الهمّ؛ لأن العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد بتفريق الهم في الدنيا، فإذا اجتمع الهم حضر العقل، ولم يعزب على الفكر فيما أحب الله عز وجل.

وكذلك روي عن أبي العالية قيل له: ما يفتح على الفكر؟ قال: اجتماع الهمّ؛ لأنَّ العبد إذا اجتمع همّه تفكر، وإذا تفكر نظر، وإذا نظر أبصر."[1]

وفي رسالة المسترشدين يرشد المحاسبي قائلاً: "واعلم أنه ما تزيّن أحد بزينة كالعقل، ولا لبس ثوباً أجمل من العلم؛ لأنَّه ما عُرف اللهُ إلا بالعقل، وما أُطيع إلا بالعلم."[2] ونختم الإشارة إلى المحاسبي بما أورده في كتاب

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). **الرعاية لحقوق الله**، دراسة وتحقيق: عبد الحليم محمود. القاهرة: دار المعارف، (د.ت.)، ص ٤٧، ٦١، ٦٥.

(٢) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). **رسالة المسترشدين**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، ط٥، القاهرة: دار السلام، الإسلامية، ١٩٨٣، ص ٩٧-٩٩.

الوصايا: "الزهد متفاوت في قلوب الزاهدين، فكلُّ رجل منهم زهدُه على قَدْر معرفته، ومعرفتُه على قدر عَقْلِه، وعقلُه على قدر إيمانِه."[1] فكأنّه جعل الإيمان رأس الأمر وعنه ينبثق كل من العقل والمعرفة، أو أنّه جعل مستوى الإيمان يحدد مستوى التعقل والفهم، ومستوى التعقل هو الذي يحدد مستوى كسبِهِ من العلم والمعرفة.

وفي الحديث عن أثر الإمام المحاسبي في الفكر الإسلامي نكتفي بذكر ما رواه أبو حامد الغزالي في كتابه: "المنقذ من الضلال" من وقوعه في الحيرة والقلق، وسعيه للخروج منها باستقصاء ما عند الفرق التي كانت معروفة في عصره، بدءاً بكتابات المتكلمين، ثم الفلاسفة، ثم الباطنية، وأخيراً الصوفية، فأشار إلى أنه ابتدأ "بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي..."[2] ومع أنَّ أبا حامد لم يذكر الكتب التي قرأها للمحاسبي، فإن في كتاب المنقذ من الضلال كلاماً أشبه ما يكون بألفاظه ومعانيه بما جاء في كتابات المحاسبي، فضلاً عن الموضوعات الكثيرة التي طرقها الغزالي في "الإحياء" على نهج "الرعاية" للمحاسبي.

في "كتاب التفكر" من ربع المنجيات من كتاب "إحياء علوم الدين"، يتحدث الغزالي عن فضيلة التفكر، وبيان حقيقة الفكر وثمرته، وبيان مجارى الفكر، وبيان كيفية التفَكُّر في خلق الله تعالى.[3]

---

(١) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). **الوصايا: النصائح، القصد والرجوع إلى الله، بدء من أناب إلى الله، فهم الصلاة، التوهم**، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٨، ص ٢٤٧.

(٢) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد (٥٠٥هـ) **المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق. جميل صليبا وكامل عياد، بيروت: دار النفائس، ط٧، ١٩٦٧، ص ١٠٠-١٠١

(٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ). **إحياء علوم الدين**، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م، الجزء الخامس، ص ٣-٣٤

ويؤكد الغزالي أنَّ الفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، ويربط بين الفكر وثمرته فيقول: "وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كله، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر، وأنه خير من الذكر والتذكر، لأن الفكر ذكر وزيادة... فإذاً التفَكُّر أفضل من جملة الأعمال... فههنا خمس درجات:

أولاها: التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيها: التفَكُّر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال."[1]

وينقل أبو حامد الغزالي عن الحسن البصري قوله: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة."[2]

أما ابن قيم الجوزية فإننا نختار من كتبه كتابين لتوضيح الطريقة التي عالج فيها قضايا الفكر والتفكر، هما "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة"، وكتاب "الفوائد".

يشير ابن القيم في الكتاب الأول إلى قصة هبوط آدم إلى الأرض، ووعد الله لبني آدم أن يبعث إليهم بالهدى، وأن من يتبع الهدى فلن يضل ولا يشقى، بل تتحقق له السعادة في هذه الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ

(١) المرجع السابق ص ٧-٨

(٢) المرجع السابق ص ٥-٦

بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣] ثم يؤكد أنّ مراتب السعادة والفلاح إنما تتحقق بأصلين: "قوة الإدراك والنظر، وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعها من النية والعزم والعمل."[١]

فهذان الأصلان هما "العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذه النوعين: همَّةٌ تُرقِّيه، وعلمٌ يبصّره ويهديه."[٢]

والكتاب كلُّه بعد ذلك بيانٌ للأصل الأول: وهو العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه. ويفصِّل في وجوه فضل العلم من مئة وثلاثة وخمسين وجهاً. وقد جاء آخر هذه الوجوه بعنوان "قول بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة". ثم يكتب في مجالات التذكر تفاصيل غطت مائتين وثمانين صفحة. ومن اللافت للانتباه أن تقسيمات ابن القيم لموضوع التفَكُّر تكاد تتطابق مع تقسيمات أبي حامد الغزالي، لكنها أكثر تفصيلاً، بل إنّ كثيراً من الاقتباسات التي ضمنها ابن القيم مادة كتابه "مفتاح دار السعادة" من أقوال السابقين، هي الاقتباسات نفسها التي كان الغزالي قد ضمنها كتابه "إحياء علوم الدين"، رغم ما بين العالمين الجليلين من زمن يتجاوز قرنين ونصف القرن، وعلى ما بينهما من اختلاف في الانتماء الفقهي والتوجه الكلامي والفلسفي.

ويعود ابن القيم إلى الحديث عن التفَكُّر في كتاب آخر له لا يقل أهمية عن كتاب "مفتاح دار السعادة"، ذلك هو كتاب "الفوائد" وفيه يتحدث بقدر من التفصيل كذلك عن علاقة الأفكار والأفعال وما بينهما من عمليات تحوُّلٍ

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١هـ) **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الرياض: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٤.

وتطوُّر في ذات الإنسان، فيقول: "مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها."[1] وتتنوع هذه الأفكار في جودتها وفائدتها، وللإنسان قدرة على تتبع ما يخطر له من أفكار، فينتقي منها ما يفيد، ويصرف عن خاطره ما يضر. يقول ابن القيم: "فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَب الذي يوضع في الرحا، ولا تبقى الرحا معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها. فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه."[2]

ويتوسّع ابن القيم في بيان علاقة التفكُّر بالتذكر من خلال تأمله في السياقات التي وردت فيها العمليتان في القرآن الكريم فيقول مثلاً في مجال تعقيبه على آيات سورة النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠-١٣] موضحاً موقع التفكُّر في قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ وموقع التعقّل في قوله سبحانه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْم يَعْقِلُونَ .وأخيراً موقع التذكر في قوله عزّ وجلّ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْم يَذَّكَّرُونَ يقول ابنُ القيم: "وأما تخصيصه إيّاها بأهل التذكّر، فطريقة القرآن في ذلك

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. **الفوائد**، القاهرة: مكتبة الجامعة، الطبعة الرابعة ١٩٨٠، ص ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠

أن يجعل آياته للتبصّر والتذكّر، كما قال تعالى في سورة "ق": ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٧-٨] فالتبصرة: التعقّل، والتذكرة: التذكر، والفكر باب ذلك ومدخلُه، فإذا فكّر تبصّر، وإذا تبصَّر تذكَّر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتّب على الفكر، فقدّم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسَّط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته، وأخّر التذكّر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل. فتأمّل ذلك حق التأمّل."

"فإن قلتَ: فما الفرق بين التذكُّر والتفكُّر؟... قلتُ: التفَكُّر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة،... فأعلم أن التفَكُّر طلبُ القلب ما ليس حاصل من العلم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته, فإنه لو لم يكن ثَمَّ مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه، فإذا عرف هذا فالمتفكِّر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي اجتنابه. فالتذكر هو مقصود التفَكُّر وثمرته ..."فإذا تذكَّر عادَ بتذكُّره على تفكُّره ما دام عاقلاً؛ لأنَّ العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة. وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته فإنَّ المضاد للعلم، إما عمى القلب وزواله بالتبصُّر، وإمّا غفلته وزواله بالتذكُّر." (١)

"فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة." وهذه المعرفة الثالثة قد تكون خبراً سمعه دون تيقن تام، أو أن يتيقن ويجزم بصحته وفي الحالتين يكون له مستويات العلم بالأمر، ما "يسمّى تفكراً وتذكراً، ونظراً، وتأملاً، واعتباراً، وتدبراً، واستبصاراً، وهذه معانٍ متقاربةٌ

(١) ابن قيم الجوزية. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، مرجع سابق، ص ٦٠٦-٦٠٧.

تجتمع في شيءٍ، وتتفرق في آخر: فيسمى: تفكراً لأنه استعمالُ الفكرة في ذلك وإحضارُه عنده. ويُسمَّى تذكراً؛ لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه...

"ويُسمَّى: نظراً؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه. ويُسمَّى: تأملاً؛ لأنه مراجعة للنظر كرَّة بعد كرة، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

"ويُسمَّى: اعتباراً؛ وهو افتعال من العبور؛ لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكَّر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عِبْرة؛ إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به...

"ويُسمَّى: تدبراً؛ لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبُها... وتدبر الكلام أن ينظرَ في أوله وآخره ثم يعيدَ نظره مرةً بعد مرةٍ ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين.

"ويُسمَّى: استبصاراً وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة." وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه، ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب فالتفكر يحصِّلُه والتذكر يحفظُه."[1]

"فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجة الفكر، وحالٍ يحدث للقلب، من ذلك العلم، فإن كلّ من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة، وينصبغَ بصبغةٍ من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل. فها هنا خمسة أمور: الفكر، وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة التي تحدث

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٥.

للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العمل... فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها... وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر. وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة."[1]

**يجتهد القارئ عند هذا الحد من المعالجة أن يوضح ما توصل إليه من دلالة مفاهيم التفَكُّر والتذكر والتدبر وما بينها من علاقة أو تمايز**

## ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران

وقد يكون من المفيد أن نستدرك على المحاسبي وغيره من العلماء الذين عرفوا بكتاباتهم عن التزكية، أن عمليات التعقل والتفكر والتذكر التي يقوم بها الإنسان، من أجل الاتصاف بالتقوى، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، لا تعني بالضرورة عدم الأخذ بنصيب الإنسان من الدنيا، فمجالسة العلماء وحضور دروسهم، والرحلة إليهم طلباً للعلم، والسعي في مناكب الأرض، طلباً للأكل من رزق الله، وإتقان متطلبات المهنة في الحياة، من تجارة وزراعة وحرفة، كل ذلك من نصيب الدنيا، وكلُّه يتطلب تعقلاً وتفكراً وتذكراً، فضلاً عما يلزم المؤمن من التفَكُّر والتذكر في ثواب المجاهدين في سبيل الله والمرابطين على الثغور، والنفرة في هذا السبيل.

فالزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، هو زراعةٌ في الدنيا وحصاد في الآخرة، فالذي يَعْقِلُ عن الله شيئاً مما أمره به، يحرص على تنفيذ أمره، فإذا كان من أمر الله الرحمة بخلق الله، تمثل هذه الرحمة في علاقته بالناس، فإذا "عقل عن الله عزّ وجلّ ما ابتدأ العباد به من الرحمة... ألزم قلبه رحمة الأمة، فأحبَّ محسنَهم، وأشفق على مسيئهم، ودعا إلى الله سبحانه -إذا أمكنه- مدبِرَهم، ولم يدّخر مالاً عن فقيرهم... من سأله منهم ما يقدر عليه لم يتبرّم بطلبه... ومن آذاه وأساء إليه لم يجد في نفسه كراهية للعفو والصفح عنه، يعدُّهم جميعاً كأقرب الخلق منه،

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٦.

كبيرهم مثل أبيه، وصغيرهم كولده، وقِرنُه كأخيه..."[1] وإذا عقل عن الله أمره بالتعليم والإصلاح، فإنه: "يذكِّرُ الناس بما قد علمه فينسيه، وينبه المتهاون لما كان قد اشتغل عن العناية بالقيام به، ويبيّنُ للزائغ عن طريق الرشد أنه قد تركه."[2]

ومن ناحية أخرى يكون من المفيد كذلك أن نشير إلى التعقل والتفكر والتذكر، كما يقوم به المؤمن، طلباً لما يريده من شؤون الدنيا والآخرة، يقوم به غير المؤمن كذلك، طلباً لما يريده من العلم في ظاهر الحياة الدنيا، وبعض الناس يصل بهم إتقان عمليات التفكير في فنون العلم إلى حدّ العجب. وفي ذلك يروي المحاسبي -بسنده- عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] قال: لا جرم واللهِ لقد بلغ من علم أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفرِه، ويخبرك بوزْنه، وما يحسن يصلِّي."[3]

وإذا كان أبو حامد الغزالي قد فصّل في التفَكُّر في آيات الله المتلوة وآيات الله المنظورة لتكون نتيجة التفَكُّر على معرفة الله والتقرب بالزهد في الدنيا وطلب الآخرة وذلك في ربع المنجيات من كتاب الإحياء، فإنه قد قدم قبل ذلك كثيراً من متطلبات التفَكُّر في أمور الكسب والمعاش، من أنوع المهن والصنائع والحرف، والمأكل والملبس ومسائل الزواج وآداب المعيشة الاجتماعية. وكان في كل فصل يبدأ بذكر ما يختص بموضوع الفصل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، وغيرهم من السابقين. وحتى في الحديث عن الزهد تحدث مطولاً عن ضرورات الحياة ودرجات الزهد فيما هو من هذه الضرورات. فثمة ضرورات إذاً، لا بد من الأخذ بنصيب منها، ومن هذه الضرورات ما جرت به عادة الناس في حياتهم، مما يلزم التفَكُّر فيه والقيام بأمره والعلم بمسائله والمهارة في أدائه.

(١) المحاسبي، **العقل وفهم القرآن**، مرجع سابق، ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٤

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٤.

أما ابن القيم فهو كذلك يتحدث عن بعض الأمثلة من نصيب الإنسان في الدنيا، فهو يقول: والله سبحانه "كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله."[1] ثم يتحدث عن فريق من الناس ضلّوا في النظر إلى الجمال، حتى إن "العارف" من هذا الفريق "يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحاً، وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر، والجهاد في سبيله، وإقامة حدوده." فهو إذاً لا يرى مشكلة في رجاء الآخرة، والسعي في مدارج السالكين نحوها والقيام بما أمر الله من حب الجمال وبغض القبح، ومنه الحب والكره في الله، والجهاد في سبيله وإقامة حدوده. ويفصل النزاع في مسألة الجمال حين يقول: "وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة على ثلاثة أنواع: منه ما يحمد ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محموداً إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وغيظ عدوه...."[2]

ويضع ابن القيم تصنيفاً لأنواع الفكر تحت عنوان "قاعدة نافعة" فيقول: "أصل الخير والشر من قِبَل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار، ويليها أربعة: فِكْرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكرٌ في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء."[3]

---

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. **الفوائد**، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ٢٤٣-٢٤٤

(٣) المرجع السابق ٢٥٨.

ومع هذا الاستدراك، يتوقع من الإنسان المؤمن وهو يستجيب لدعوة رب العالمين المتكررة بإلحاح وبأساليب ومفردات متعددة إلى التفكر، والتدبر، والتبصر، والتعقل، والنظر، والفقه، والاعتبار، أن يبدأ هذه الاستجابة عبر سلسلة من مراحل التعلم والتعمق في الفهم والزيادة في العلم، تتناسب مع التفصيل الذي أوردته الآيات القرآنية في مجالاتها المختلفة: فمنها الآيات الكونية وعددها يزيد عن ألف وثلاثمائة آية في القرآن الكريم، ومنها آيات تفصل خلق الإنسان طوراً من بعد طور، واختلاف الليل والنهار، وبناء السماوات، ومهد الأرض، ونمو النبات، وعجائب الحيوان، ومقصدها الأساس هو التفكر، ومنها آيات القصص والتاريخ والحضارات السابقة، وآيات القصص وهي كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ثلث القرآن،(١) ومقصدها الأساس هو الاعتبار، وآيات القرآن المتلوة في مجملها على أية حال مقصدها الأساس التدبر: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد: ٢٤].

فالتدبر للآيات القرآنية بصورة عامة والتفكّر في الآيات الكونية منها، والاعتبار من قصص الغابرين، كل ذلك يهدف إلى أن يقود في نهاية المطاف إلى الإيمان بالخالق؛ بوحدانيته وأسمائه وصفاته، ومن ثم السعي الحثيث في تزكية النفس بطلب رضوان هذا الخالق الواحد، وتجنب سخطه.

ولكن ما الذي يحصل في الطريق إلى هذه النهاية، وأثناء السعي، وقبل الوصول؟! كيف لا يقود طول التفكُّر والاعتبار والتدبر، أثناء ذلك السعي، إلى بناء الفكر والعلم والفهم والاكتشاف؟

---

(١) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني (توفي ٧٢٨هـ). **مجموعة الفتاوى**، عناية عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ج١٧، ص١١٥.
والنص هو: وَقَوْلِه لِلنَّاسِ؛ -أي قوله ﷺ-: {احْتَشِدُوا حَتَّى أَقْرَأَ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَحَشَدُوا حَتَّى قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.} وَأَمَّا تَوْجِيهُ ذَلِكَ: فَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إنَّ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ : ثُلُثٌ تَوْحِيدٌ وَثُلُثٌ قَصَصٌ وَثُلُثٌ أَمْرٌ وَنَهْيٌ.

ومن أين تأتي السنن والقوانين والنظريات، إذا لم تكن هذه صياغات علمية لذلك العلم والفهم والاكتشاف وما يلزم ذلك من قياس وتجريب؟!

وما قيمة هذه العلوم والاكتشافات إن لم يصاحبها تطبيقات عملية، ومنافع حقيقية، تيسر للسالكين سبل السعي في هذه الحياة الدنيا على هذه الأرض، وحمل الأمانة في الدنيا، والقيام بحق الخلافة في الأرض، وإدراك الدلالات العملية لآيات التسخير، والتبصر في آيات التمكين؟

وكيف حقق الله دعوة إبراهيم أثناء بناء البيت الحرام، أن يجعل الله ذلك البلد آمناً يأتيه رزقه من الثمرات إلا عن طريق رحلة الشتاء والصيف، فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟

فالتجارة والصناعة والزراعة وسن القوانين والتشريعات، التي تضبط الأمن وتحمي الطريق، وتنظيم تفاصيل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول، وإدارة أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة... كل ذلك علوم نافعة، لماذا لم يسبق إليها المؤمنون بالآخرة وهم في طريقهم إليها يتفكرون ويتدبرن؟ ألم يكن بالإمكان أن تنمو هذه العلوم وتكون امتداداً للبذور التي زرعها السابقون من العلماء في أبواب فقه المعاملات؟

ترى لو كان كل ذلك من كسب المجتمع المسلم، في الوقت الذي تسير فيه القافلة وعيونها على نهاية الطريق إلى الله، أكان ذلك عائقاً دون الوصول؟ نعم، سيكون في الطريق أناس يشغلهم كل ذلك عن التدبر في مآلات الأمور والمصير إلى الله، وقد يصيب بعض هؤلاء السالكين من الغفلة، والغرور، والكبر، والاعتداد بعلم يعلمونه من باب ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] وقد يكون هؤلاء أكثر الناس: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٦-٧] ومع ذلك فإن المؤمنين أَوْلَى بهذا العلم من غيرهم؛ لأنهم يجمعون علم ظاهر الحياة الدنيا وعلم حقيقة الحياة الدنيا وأنها طريق إلى الآخرة، ولو تعلم المسلمون هذه العلوم الدنيوية "وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به... كانت أشرف العلوم

وأنفعها، لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جلّ وعلا، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [أنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى، وسعياً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة."[1]

لو تحقق هذا الجمع بين التوحيد والتزكية والعمران، سوف تصبح الآيات الكونية، والآيات النفسية، والآيات الاجتماعية، والآيات التاريخية، وكل آيات القرآن الكريم عناوين لموضوعات التفكُّر والتدبر والاعتبار، وموضوعاتٍ للمشاريع البحثية المتعمقة التي توسع فضاءات العلم يوماً بعد يوم، وتجعل الأمة المسلمة في موقع الخيرية والقيادة والريادة.

وإذا كان الله سبحانه قد ذكر -في مقام الذم- أولئك الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، فإنَّ من العجز أن يقول قائل من الذين يدَّعون علم الآخرة وهم عن علوم الدنيا هم غافلون: الحمد لله، لهم الدنيا ولنا الآخرة، أو يقول: الحمد الله الذي سخر لنا هؤلاء الكفار الغافلين عن الآخرة، المنشغلين بالدنيا، يستخرجون من أرضنا أنواع المعادن والبترول، وينتجون لنا منها عجائب الصناعات، ويوفرون لنا أطيب المآكل والمشارب وأحسن الملابس، لننشغل بالآخرة كما انشغلوا بالدنيا! ألا تعساً للطاعم الكاسي!

## رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل

الدين في المفهوم الإسلامي الأساس هو: إيمان، وعلم، وعمل. فأين موقع الفكر من هذه المفاهيم الثلاثة؟

لقد نقلنا فيما سبق نصوصاً للمحاسبي والغزالي وابن القيم حول علاقة

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين, **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ت.)، ج٦، ص ٥٢٩-٥٣٠.

الفكر والعلم والعمل، في ضوء فهم هؤلاء العلماء وأمثالهم للهدي الإلهي والبيان النبوي. وتبين لنا أنَّ الفكر هو عنصر أساسٌ في هذه الثلاثة. ونذكِّر في هذا المقام مرة أخرى بنص ابن القيم: "مبْدَأُ كلِّ عِلْم نَظَرِي وعَمَلٍ اختياري هو الخواطرُ والأفْكار؛ فإنَّها تُوجِبُ التصوُّرات؛ والتصوُّراتُ تدعو إلى الإرَادات؛ والإراداتُ تقْتَضِي وقوعَ الفِعْل؛ وكثرةُ تِكْرَارِه تُعْطِي العادةَ؛ فصَلَاحُ هذه المرَاتِب بِصَلاحِ الخَوَاطِر والأَفْكَار، وفسادُها بِفَسَادِها."[1]

ولعلّ النظر في الاقترانات القرآنية بين مفاهيم الإيمان والعلم والعمل يسهم في فهم موقع الفكر في هذه المفاهيم الثلاثة.

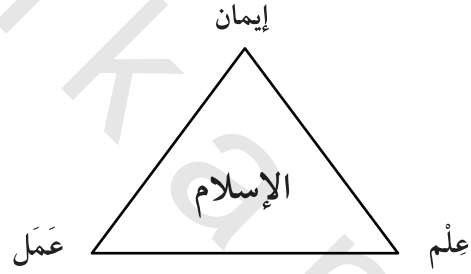


**١- اقتران الإيمان والعلم**

يحلو للمهتمين بالإعجاز العددي في القرآن الكريم أن يحسبوا عدد المرات التي يذكر فيها لفظ معين في القرآن الكريم، أو اللفظ ومشتقاته ليصلوا إلى نتائج معينة، ولا خلاف على أن هذه النتائج هي اجتهاد في الفهم، يحتمل الصواب والخطأ، ولكن بعض النتائج العددية تلفت الانتباه، وتثير الاهتمام. ومن ذلك مثلاً أنَّ عدد المواضع التي ذكر فيها لفظ الإيمان ومشتقاته هو ٨١١ موضعاً. وعدد المواضع التي ذكر فيها لفظ العلم ومشتقاته

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (٧٥١هـ). **الفوائد**، تحقيق محمد عزير شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

٧٨٢ موضعاً. وعدد المواضع التي وردت فيه المعرفة ومشتقاتها ٢٩ موضعاً، ومجموع عددي الموضوعين هو ٨١١ وهو يساوي عدد المواضع التي ذكر فيها لفظ الإيمان ومشتقاته![1]

إنَّ العلاقة بين الإيمان والعلم هي في حقيقتها علاقة بين الإيمان والفكر. فالإيمان في الإسلام مسؤولية فكرية تتحقق من تعقُّل موضوعات الإيمان، ومعرفة حقائقها، وتذكُّر عناصرها، وتدبُّر مضامينها، وبهذه المسؤولية تتحقق إنسانية الإنسان وتُحْتَرم كرامته. فالإيمان دون هذه العلم، حَطٌّ من مسؤولية الإنسان، وهدر لكرامته. ولا يستوي العالم والجاهل، فالعالم مطمئن بإيمانه، والجاهل يتزعزع إيمانه عند أول اختبار: يقول الله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]

لقد قرن الله سبحانه الإيمان والعلم، في كثير من الآيات، وذلك في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦]. وفسر ابن عاشور عطف الإيمان على العلم بقوله: "وعطف الإيمان على العلم والاهتمام به؛ لأنَّ العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة ..."[2] وتكرر عطف الإيمان على العلم في آيات كثيرة أخرى منها: قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٢]

وقد ورد اقتران الإيمان بالعلم في الحديث النبوي الشريف، فقد روى يزيد بن عميرة، "أنَّ معاذ بن جبل، لما حضرته الوفاة، قالوا: يا أبا عبد الرحمن،

---

(١) نوفل، عبد الرزاق. **الإعجاز العددي في القرآن الكريم**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٥، ١٩٨٧م، ص ٥٦.

(٢) ابن عاشور، **تفسيرالتحرير والتنوير**، مرجع سابق، الجزء ٢١، ص ١٣١.

أوصنا، قال: أجلسوني ، ثم قال: إنَّ العلم والإيمان مكانهما، من التمسهما وجدهما، قال ذلك ثلاث مرات،..."[١]

وفي مدى تلازم الإيمان مع العلم يقول ابن القيم: "والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة، وهما يورثان الإيمان ويمدانه. ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الإرادة. ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسا من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة؛ فهذا أصح الناس علما وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء رسوله ﷺ في أمته."[٢]

لكن العلم في الرؤية الإسلامية هو العلم بمعناه القرآني الواسع، الذي يشمل العلم بعلوم الأشياء (العلوم الطبيعية والمادية)، والعلم بحقائق السلوك والنفس والمجتمع (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، والعلم بالعقائد ومسائل الإيمان (علوم الشريعة). وكلها يمكن أن تكون علوماً نافعة. وقد أعلى الله سبحانه من قيمة العلم النافع وحث عليه وفضل العلماء، وذكر كيف أنَّ الله سبحانه فضَّل بعض من اصطفاهم من الناس بعلم نافع، فكانت قيمة العلم ومنفعته عندما يوَظِّف العالِمُ عِلْمَه في عَمَل مفيد، ؛ فذو القرنين يوظِّف علمه في الهندسة والعمران وعلوم المعادن، ليَبْنِي جداراً منيعاً يَحْمِي أولئك الضعفاء بين السدين من فساد يأجوج ومأجوج، ونَبِيُّ الله يوسف عليه السلام يوظِّف بعلمه في الاقتصاد والتموين برنامجاً اقتصادياً

(١) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨، كتاب العلم، الحديث رقم ٣٤١، ج١، ص ١٤٦." وعقبَّ الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ويزيد بن عميرة السكسكي صاحب معاذ بن جبل، وقد شهد مكحول الدمشقي ليزيد بذلك، وهو مما يستشهد مكحول عن يزيد متابعة لأبي إدريس الخولاني."

(٢) ابن قيم الجوزية، **الفوائد**، مرجع سابق، ص ١٤٠.

يَحْمِي به الشعوب التي كانت تسكن مصر والمناطق المجاورة من المجاعه، ونَبِيُّ الله نوحٌ عليه السلام يوظِّف ما علَّمه الله سبحانه من علم، فيبني بعلمه في النجارة سفينة ضخمة تنقذ من آمن معه، وتبقي على أصناف الكائنات التي تحتاجها البشرية من أن يهلكها الطوفان. ومثل هذه القصص الكثيرة في القرآن الكريم دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم، فهو متاح لمن يطلبه ويجتهد في اكتسابه.

ومع أنَّ أفضل العلم هو العلم بالله سبحانه، والعلم الذي يقود إلى الإيمان بالله والتصديق بما أخبر به رسل الله عن ربهم، من علم عن الله سبحانه وملائكته وكتبه واليوم الآخر، والالتزام بأحكام الله وشرائعه في حياة الناس، فإنَّ النص القرآني قد وسَّع معنى العلم ليشمل صوراً شتى ممن تفضل الله عليهم بشيء من علمه، فالله سبحانه علم يعقوب عليه السلام شيئاً فكان ذا علم لما علَّمه الله ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨]. والله سبحانه قد علَّم سليمان عليه السلام منطق الطير: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦] وعلَّم داود عليه السلام صناعة ملابس الحرب: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وعلَّم يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف: ٣٧]. وعلَّم ذا القرنين شيئاً من الهندسة وعلوم المعادن: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف: ٩٥ - ٩٦]. وعلَّم نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك بعين الله ووحيه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧].

ولعلَّ من أشرف ما خصَّ الله به العلم من قيمة ورفعة شأن أن أنزل أولى آياته عن العلم، ومهاراته في القراءة والكتابة، وأداته الأساس وهي القلم، وضمَّن هذه الآيات ذكر العلم الذي يُعَلِّمُه الله للإنسان عن طريق الوحي المنزل، الذي يكتب بالقلم، ويتعلم بالقراءة، والعلم الذي يمكن الله سبحانه الإنسان من تَعَلُّمِه عن طريق النظر والتأمل والقراءة في الكون المخلوق، فقال سبحانه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق: ١-٥].

فالمجتمع الذي يريد الإسلام أن يقيمه هو مجتمع يتكامل فيها الإيمان والعلم، ويقترن فيه "إيمانُ العلماء" من كافة التخصصات العلمية، و"عِلْمُ المؤمنين" المتخصصين بها.

قال ابن القيم رحمه الله: "أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصّلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والأخره، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصةُ الوجود ولُبُّهُ، والمؤهَّلُون للمراتب العاليه."[1]

ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أنَّ الفكر والثقافة مجال خاص لاهتمام فئة من الناس، تختلف عن فئة أخرى تنشغل بقضايا الإيمان، وتهذيب السلوك، والتخلق بالخصال الحميدة، وكأنَّ صاحب الفكر ليس مطلوباً أن تظهر عليه مظاهر الإيمان والخلق وحسن السلوك، أو كأنَّ المؤمن التقي الذي يكثر من العبادة ويقل طمعه في الدنيا هو إنسان جاهل لا عِلْمَ عنده، ولا فكر له ولا ثقافة.

**٢- اقتران الإيمان والعمل**

في القرآن الكريم أحدى وخمسون آيةً يقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح،

(١) ابن قيم الجوزية، **الفوائد**، مرجع سابق، ص ١٥١.

اقتراناً لفظياً، مثل قوله سبحانه ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]. وثمة آياتٌ كثيرة أخرى تؤكد على ضرورة الاقتران بين الإيمان والعمل، وتستنكر أن لا يوجد هذا الاقتران والاتساق مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. [الحجرات: ١٤-١٥]، ومثل قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف٢-٣].

والمعنى الشرعي المعروف للإيمان عند العلماء أنه قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. أو هو نظر وعمل، فبالنظر يتحقق العلم والفكر، وبالعمل تتحقق الاستجابة لمتطلبات النظر من سلوك وممارسة.

يقول ابن القيم: "الإيمان له ظاهرٌ وباطن: وظاهرُه قولُ اللسان وعملُ الجوارح، وباطنُه تصديقُ القلب وانقيادُهُ ومحبَّتُهُ. فلا ينفع ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حقَنَ به الدماء وعصَمَ به المال والذرِّيَّة. ولا يُجزِئُ باطنٌ لا ظاهرَ له، إلا إذا تعذَّرَ بعجز أو إكراه وخوفِ هلاك. فتخلُّفُ العمل ظاهراً مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطن وخلُوِّه من الإيمان، ونقصُهُ دليلُ نقصِه، وقوَّتُه دليلُ قوَّتِه. فالإيمان قلبُ الإسلام ولبُّه، واليقينُ قلبُ الإيمان ولُبُّهُ. وكلُّ علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوةً فمدخول، وكلُّ إيمان لا يبعث على العمل فمدخول."[1]

إن اقتران "الذين آمنو وعملوا الصالحات" في القرآن الكريم جاء في غالب المواضع بصيغة الجمع: فالذين آمنوا جماعةٌ، والذين عملوا الصالحات جماعةٌ،

(١) ابن قيم الجوزية، **الفوائد**، مرجع سابق، ص ١٤١.

فالجماعة المؤمنة توحَّدت على رؤية علمية، ثم جاءت أعمالها الصالحة وفقاً لتلك الرؤية.

ويستخلص عبد الرحمن حللي من ذلك دلالة حضارية لها أهميّتها في تحقيق النهوض الحضاري للأمة، فالنهضة شأن الجماعة والأمة حين تقوم بالعمل المطلوب، والنهضة تقتضي تصوراً مشتركاً بين الجماعة، وهو الإيمان، وهذا الإيمان منطلق العمل الصالح.[1]

**٣- اقتران العلم بالعمل**

ولا خلاف على أنَّ مفهوم "العبادة" في الإسلام يتسع ليشمل كل الأفعال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان طلباً للأجر والثواب والتقرب من الله سبحانه، وتنفيذاً للأحكام والشرائع التي جاء بها دين الله. ومعرفة ما يكون به الفعل تقرباً إلى الله -وليس شهوة نفسية أو بدنية- يحتاج إلى علم، ومعرفة أحكام الله وشرائعه لتنفيذها يحتاج إلى علم. ولذلك تحدث العلماء عن "اقتضاء العلم العمل"[2] وعن تلازم العلم والعمل: "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما، لأنَّ العلمَ كالأُسِّ والعملَ كالبناء، وكما لا يغني أُسٌّ ما لم يكن بناء، ولا يَثْبُتُ بناءٌ ما لم يكن أسٌّ، كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم."[3] وأوضح من ذلك تصريح النبي ﷺ بأنَّ العملَ علمٌ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل"، قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله"، قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول

(١) حللي، عبد الرحمن. اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضارية، **مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية**، المجلد ٢٧، العدد الثالث، ٢٠١١م، ص ٤٣٩- ٤٦٣

(٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (٤٦٣هـ). **اقتضاء العلم العمل**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ). **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م، ص ٨٥-٨٦.

الله، صلى الله عليه وآله وسلم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل."[1]

قال الراغب الأصفهاني: "قال بعض الأدباء: العملُ مقلوبٌ عن العلم، وإنَّ العلمَ فعلُ القلب والعملُ فعلُ الجارحة، وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم وينقلب عنه."[2]

وإذا كان العلم عند غير المسلمين هو "بناء نظري أو نسق معرفي" لا يقتضي بالضرورة ممارسة وسلوكاً عملياً، فإنَّ العلم والعمل عند المسلم متلازمان، بل إن العلم ينزل منزلة العمل، كما رأينا في الحديث الشريف آنفاً، لأن العلم عمل القلب، وهو تفكر ذهني لا يحتاج إلى حركات الجوارح الظاهرة، ولأنه العمل المطلوب من أجل "إنتاج المعارف والوصول إلى الحقائق."[3]

والعمل في سياق معين يعني الإحاطة بحقيقة معينة، وممارسة هذه الحقيقة، "فإن معرفة الحقيقة تنزل من العمل منزلة العلم، ولا عمل بغير علم، والعكس صحيح."[4]

إن اقتران العلم والعمل شبيه باقتران الإيمان بالإسلام، فالإيمان من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل، لذا فإن "الإيمان هو الإذعان إلى الحق: على سبيل التصديق له واليقين، ولهذا وصف الله الإيمان والعلم بوصف واحد فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) ابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ). **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٤م، باب جمع في فضل العلم، ج١، حديث رقم ٢١٤، ص٢٠٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ). **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تعليق محمود بيجو، دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١، ص ٣٠٥.

(٣) عبد الرحمن، طه. **سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم**، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢، ص ٢٣٢.

(٤) عبد الرحمن، طه. **سؤال العمل: مرجع سابق**، ص ١٣.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ووَجَلُ القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق باليقين، هذا أصل الإيمان.(١)

**٤- الأفكار والبرامج**

في عالم السياسة في كثير من بلاد العالم حكومات ومعارضة، الحكومات تقدم برامج تقوم على أفكار، وتنفِّذ هذه البرامج؛ والمعارضة تقدِّم أفكاراً، وربما تقدِّم برامج كذلك، لكنها لا تحظى بالقبول لدى الحكومة، أو لدى المجالس التشريعية، لأنَّ عدد الأصوات التي تدعم رأي المعارضة لا يكفي لاتخاذ قرار يلزم الحكومة. فتبقى أفكار المعارضة، أفكاراً وحسب، فهل يقلِّل ذلك من أهمية هذه الأفكار، وهل يعني ذلك أنَّ هذه الأفكار أقل وزناً وأضعف شأناً من أفكار الحكومة، أم أنها أضعف جنداً وحسب؟! ولكن موازين القوى قد تتحول، فتصبح المعارضة السابقة في السلطة وتباشر في تحقيق أفكارها وتنفيذ برامجها. وبذلك تكون الأفكار والبرامج هي ساحة المنافسة، ويميل الناس إلى ما يثبت نفعه منها، ويرغبون عمَّا يثبت ضرره.

وفي بعض البلدان لا تملك المعارضة أن تطور برامج لتطوير أفكارها، لأنَّها محرومة من سبل الوصول إلى المعلومات التي تلزم لتطوير البرامج، فالحكومة تحتكر المعلومات، وتستبد بالقرارات، ومع ذلك يمارس إعلامها قذف المعارضة بالعجز عن تقديم البرامج البديلة، وتبقى الأفكار البديلة أفكاراً وحسب، مهما كانت قيمتها ورقيّها. وتبقى ممارسات الحكومة هي النافذة حتى لو كانت الأفكار التي تستند إليها هذه الممارسات في غاية التخلف!

بعض الأفكار تكون في زمانها غير قابلة للتطبيق، وربما ينسب أصحابها إلى الجنون. وكثير من أفكار الخيال العلمي كانت بالأمس خيالاً محلقاً، لا ينفع إلا في التسلية والترفيه وسرد الحكايات، لكن بعضها اليوم حقائق عمّ نفعها، أَلَمْ

(١) الراغب الأصفهاني. **الذريعة إلى مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص١٢٦

يتحقق حُلْم عباس بن فرناس الذي حاول تطوير فكرة الطيران،[1] وحُلْم الحسن بن الهيثم في بناء السد العالي على نيل مصر؟![2]

كانت رسالات الله سبحانه إلى الرسل أفكاراً إصلاحية تتضمن رؤيةً للعالَم، كان يراد لها أن تكون أفكاراً يعتنقها الناس، عن الخالق والمخلوقات، وعن الحياة وغاية الإنسان في الحياة، وكانت تتضمن نظماً وعلاقات بين الناس يتحقق بها الأمن والرزق والعدل، وصور الخير العاجل في الدنيا، ويتحقق بها رضا الله عن أهل الاعتقاد والعمل، ليأجرهم من الخير والثواب الآجل في الآخرة. كانت هذه الرسالات أفكاراً، وممارسات عملية لهذه الأفكار، ولا يزال مئات الملايين من الناس من أتباع هذه الرسالات يحملون هذه الأفكار ويقومون بهذه الممارسات.

وكان الفلاسفة والمفكرون منذ أقدم العصور معنيين بتقديم أفكار على مستوى عال من الطموح، وبعض هذه الأفكار السهلة تبقى أحلاماً على امتداد المكان والزمان، رغم إمكانية تحقيقها بالفعل، وبعض الأفكار لا يمكن

---

(١) عالم مسلم أندلسي (توفي عام ٢٧٤هـ) عرف في مجالات علمية متعددة فهو مهندس وفلكي وفيزيائي وكيمياوي وعالم رياضيات. راقب باهتمام ودقة حركة أجنحة الطيور وأجرى عليها حسابات رياضية آخذاً بالاعتبار سرعة الحركة وأثر الرياح، وصنع أجنحة مشابهة لأجنحة الطيور وجرب الطيران بنفسه. فكانت هذه المحاولة واحدة من الأفكار، التي لم تنجح حينها ولكنها تحققت فيما بعد. انظر:
– الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، بيروت: دار العلم لملايين، ط٥، ١٩٨٠، ج٣، ص٢٦٤.

(٢) كان المصريون منذ أقدم العصور يعانون من الفيضان السنوي للنيل، وكان ذلك معروفاً لدى الحسن ابن الهيثم (توفي٤٣٠هـ) العالم المسلم المتخصص في الفيزياء والرياضيات والهندسة، ففكر في بناء سد يحجز الكميات الفائضة من المياه ويجعلها في قنوات للري على مدار العام، فقال قولته المشهورة: "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته." وسمع الحاكم بأمر الله الفاطمي بمقولته فاستدعاه، وطلب إليه أن ينفذ المشروع، فذهب ابن الهيثم إلى المكان الذي حدّده في أسوان، وتهيب المسألة لضخامة الجهد المطلوب، فاعتذر وخاف على نفسه من غضب الحاكم فادعى الجنون حتى مات الحاكم. انظر:
– الزركلي، **الأعلام**، مرجع سابق، ج٦، ص٨٣.

تحقيقها؛ لأنَّها تخالف طبيعة الأشياء وسنن الكون، وبعض الأفكار تجد من الإرادة والإمكانات ما يكفي لتحقيقها.

وخلاصة القول في علاقة الفكر بالإيمان والعلم والعمل، أن الفكر عنصر أساس في هذه المفاهيم الثلاثة. وقد لاحظنا أن العلم بمعناه القرآني الواسع يشمل ثلاثة مجالات: العلم بالأشياء، والعلم بالسلوك، والعلم بالعقائد، وكلّها يمكن أن تكون علوماً نافعة. وكذلك الفكر له ثلاثة تصورات، فهو نظر استدلالي، ينتقل من أمور معلومة إلى أمور مجهولة، ونظر تقويمي، يبحث في الأشياء من جهة انتفاع الإنسان بها، ونظر استشرافي يبحث في العواقب والمآلات، فهو في المحصلة:

- نظر في المصالح المادية للإنسان وهو التعقل أو التفكير
- ونظر في المصالح الخلقية وهو الاعتبار أو الافتكار
- ونظر في المصالح الروحية وهو التدبر أو التفكر.[1]

"ويترتب على هذا أن وجه الصلة بين العلم والفكر هو كالتالي:

أ- أن العلم يحتاج إلى الفكر لكي يحصّل مشروعيته، فالعلم لا يكون مشروعاً حتى يكون نافعاً، ولا يكون نافعاً حتى يحمل في طياته فكراً، وما يطلق عليه اسم العلم النافع، إنما هو العلم الذي يزدوج بالفكر.

ب- أن الفكر يحتاج إلى العلم لكي يحصّل مصداقيته، فالفكر لا يكون صحيحاً حتى يكون حقيقياً، ولا يكون حقيقياً حتى يحمل في طياته علماً، وما يدعى باسم الفكر الصحيح، إنما هو الفكر الذي يزدوج بالعلم."[2]

أما علاقة الفكر بالعمل فيلخصه الراغب الأصفهاني في حديثه عن أقسام الفعل، والفعل عنده أشمل من العمل، على الوجه الآتي: "الفعل الإنساني ثلاثة أضرب، نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب، وبدني

(١) عبد الرحمن، طه، **سؤال العمل**، مرجع سابق ص ٣٠٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨.

وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود. وصناعي وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات."[1] ومن البدهي أن الأفكار والعلوم التي تقوم القلوب بفعلها هي التي تحفز الإنسان على الفعل البدني، بما فيه من مقتضيات الإيمان والطاعة وحسن والخلق، كما تحفزه على الفعل الصناعي الذي يقتضي إتقان المهن والصناعات المفيدة والقيام بخدمة الناس بما تقتضيه حياتهم.

فالعلم يثمر الإيمان، ويتبع الإيمان عمل وتطبيق، كما يوحي بذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤] فعندما يعلم الذين أوتوا العلم أن هذا القرآن هو الحق الذي أنزله الله سبحانه، يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان وتخشع قلوبهم وتطمئن. وبذلك يستحق هؤلاء المؤمنون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم في دينهم ودنياهم.

## خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي

شاع استعمال مصطلح الفكر ليدل على العطاء المعنوي العقلي لشخص أو لأمة، فإذا قيل الفكر الغربي، فهو الحصيلة الكلية للعقل الغربي، من العلوم والآداب والفنون، ولكن المعنى ينصرف إلى ما يتميز به الفكر الغربي من المنطلقات المذهبية التي تُلَوِّن هذا الفكر بلون غربي. ويظهر هذا الفكر في الغالب في صورة نظريات تفسيرية كبرى، في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وكذلك في عناصر الثقافة العامة التي تسود المجتمع. يرى الغربيون مثلاً أن مرجعية الفكر الغربي هي منجزات الحداثة والتنوير المتمثلة في العقلانية، والحريات الفردية، والديمقراطية، وغير ذلك مما طرأ على الحياة الأوروبية منذ القرن السابع عشر. لكن الفكر الغربي في القرن العشرين أخذ يعتمد على خليط من منجزات الحداثة وما بعد الحداثة، وعلى الثقافة السياسية الأمريكية

(١) الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، مرجع سابق ص ٣٠٤.

على وجه الخصوص، التي أخذت تروج لما يسمّى بالتراث المسيحي اليهودي، بوصفه مرجعية أساسية للفكر الغربي.[1]

ويمكن القول: إنّ مصطلح "الفكر الإسلامي" مصطلح حديث انتشر استعماله في القرن العشرين على وجه الخصوص، لتمييز ما يريده المفكرون المسلمون بديلاً أصيلاً عما أخذ ينتشر بين المسلمين من عناصر الفكر الغربي الوافد. ولم يعرف هذا المصطلح في التراث الإسلامي بهذا اللفظ رغم أن مفهوم الفكر والتفكر في القرآن الكريم والتراث الإسلامي، كما رأينا بقدر من التفصيل، مفهوم عريق وممتد على مساحة الزمن. وربما يعود السبب في عدم استعمال مصطلح "الفكر الإسلامي" إلى أن الحاجة لم تكن قائمة لتمييز ما هو إسلامي مما هو غير إسلامي، فواقع المسلمين كان واقعاً إسلامياً في الجملة سواءً في العقائد أو المعاملات، حتى الدولة لم تكن ثمة حاجة إلى إضافة لفظ الإسلامية إليها، فالخلافة الإسلامية، عرفت بأسماء عائلات الحكم: الأموية والعباسية والعثمانية، والمذاهب الإسلامية عرفت بأسماء التوجهات والمدارس الفكرية، فهي مذاهب فقهية، أو كلامية، أو صوفيه. والمذاهب الفقهية عرفت بأسماء العلماء الذين أنشأوها، فهي حنفية، وشافعية، ومالكية، وحنبلية...، والتمييز بين تنوع العقائد الإسلامية اتخذ عنوان الفرق، والتمييز بين العقائد الإسلامية وغير الإسلامية، اتخذ عناوين مثل الملل والنحل، ثم علم الأديان.

أما الفكر الإسلامي في مجمله فقد غلب عليه في الكتابات المبكرة في التاريخ الإسلامي استعمال مصطلحات أخرى مثل العلم والفقه. وهي مصطلحات سبقت إلى ميدان التدوين والتأليف. فاستعمل مصطلح الفقه مثلاً بالمعنى العام؛ أي مطلق الفهم أخذاً من نصوص القرآن الكريم، من مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ونصوص الحديث النبوي الشريف، من

(1) Wilcox, Clyde and Robinson, Carin. *Onward Christian Soldiers?: The Religious Right in American Politics*, New York: Threshold Editions, 2010, p. 13

مثل قوله ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقِّهُ في الدِّين)،[1] فكان الفقه في الدين يعني مطلق الفهم ويعني ما تهدف إليه عملية التعليم والتعلُّم. ومع ذلك فقد عُرف من أهل العلم من الصحابة من تميز بعلم من العلوم دون غيره، فكان أعلم الصحابة بالفرائض زيد بن ثابت، وكان أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وهكذا.

وقد تحول مصطلح الفقه بعد ذلك ليدل على معنى مخصوص هو العلم بالإحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وهو ما يدل عليه مصطلح الفقه الأصغر، المعروف في كتب الفقه على المذاهب المختلفة، تمييزاً له عن مصطلح الفقه الأكبر الذي قصد به علم العقائد.[2]

ومع ذلك فقد عرف تاريخ الإسلام عبر القرون نماذج من العطاء الفكري الإبداعي في ميادين العلوم المختلفة، وذلك بالإضافة إلى ما عرف بعلوم المِلَّة من علوم الفقه والأصول وعلوم القرآن وعلوم السنة والسيرة، وعلوم اللغة وآدابها.

وللتمثيل على ما يمكن أن نعده بذوراً فكرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية نذكر الجاحظ في القرن الثاني الذي كتب في الفكر الاقتصادي، والحارث المحاسبي في القرن الثالث الهجري الذي كتب في الفكر النفسي، والقابسي في القرن الرابع الذي كتب في الفكر التربوي، والماوردي في القرن الخامس الذي كتب في الفكر السياسي، والزرنوجي في القرن السادس الذي كتب في الفكر التربوي، وابن خلكان في القرن السابع الهجري الذي كتب في الفكر التاريخي

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين رقم الحديث ٧١، ص ٣٠ عن معاوية بن أبي سفيان

(٢) ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب كتاب بعنوان "الفقه الأكبر". ويبحث الكتاب في مسائل الاعتقاد مثل اختلاف الصحابة، ومعاني الإيمان والإسلام، وفعل العبد، واختلاف الفرق في القضاء والقدر، صفات الله وكلامه وإرادته سبحانه ومسألة حدوث العالم... إلخ. انظر:
- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد (ت ٣٣٣هـ). **شرح الفقه الأكبر**، شرح الكتاب المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، عنى بطباعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. الدوحة: وزارة الشؤون الدينية، (د.ت.).

وابن خلدون في القرن الثامن الذي كتب في الفكر الاجتماعي والعمران البشري. ولكن الصورة الأكثر شهرة في وصف تطور العلوم والأفكار وتمايز مجالاتها في العالم الإسلامي كانت صورة انقسام العلوم إلى فئتين: علوم نقلية وعلوم عقلية، فعلوم الفئة الأولى علوم شرعية ولغوية تعتمد الرواية والتفسير بالمأثور واستنباط الأحكام من النصوص، وعلوم الفئة الثانية علوم فلسفية نشأت في بداية أمرها نتيجة انشغال كثير من علماء المسلمين بترجمة علوم اليونان والفرس والهند والسريان وغيرهم. وقد تكون هذه الصورة مجتزأة ومخلّة في وصف مراحل تطور العلوم والأفكار في المجتمع الإسلامي عبر القرون؛ إذ يمكن دراسة هذا التطور مع التمييز بين العلم والفكر. ويمكن كذلك التمييز بين خصائص المدارس العلمية أو الفكرية، المدرسة الفقهية والأصولية، والمدرسة التاريخية، والمدرسة الفلسفية، والمدرسة العرفانية، إلخ، ولكل مدرسةٍ ظروفها التي ازدهرت فيها، وعوامل أسهمت في ازدهارها... إلخ.

ومع ذلك فإنَّه لا خلاف على أنَّ الأمة الإسلامية تعرضت لموجات من الضعف والتمزق السياسي والفوضى الفكرية؛ مما أسهم في تدهور الحالة العلمية والفكرية في المجتمعات الإسلامية، وساعد على ذلك تعرض هذه المجتمعات للقوى الاستعمارية الأجنبية، منذ سقود بغداد بيد التتار في منتصف القرن السابع الهجري. ومما أسهم في هذا الضعف كذلك الحروب الصليبية التي بدأت حملتها الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري واستمرت طيلة قرنين من الزمان، ثم امتداد الصراع بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي حتى غزوة نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨م.

وفي الوقت الذي كانت الحركة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي في حالة تباطؤ، كانت أوربا في حالة صعود علمي وصناعي متسارع، مكَّنها في نهاية المطاف من استعمار معظم أجزاء العالم الإسلامي. ومع نهاية القرن التاسع عشر وجد العالم الإسلامي نفسه في حالة من التخلف عن العالم الغربي، وبدأ

بعض العلماء يتحدثون عن علاقة الشرق الإسلامي بالغرب الأوروبي، وحاجة العالم الإسلامي إلى الإفادة من علوم الغربيين، وبدأت تطرح أسئلة ملحة حول ما يؤخذ من هذه العلوم وما لا يؤخذ، وبدأت قضية النهضة تتبلور في عدد من بلدان العالم الإسلامي، وأخذت بعض الكتابات الإسلامية تتميز عن الكتابات الفقهية التقليدية، بقدر أكبر من النظر النقدي والتحليل العقلي، وأخذ مفهوم الفكر الإسلامي يتبلور مقابلَ الفكر الغربي.

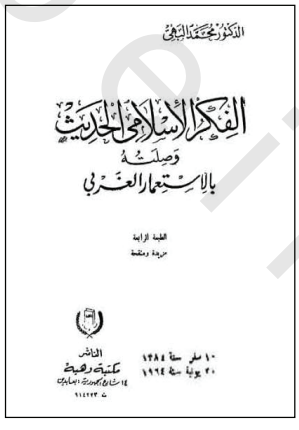


ومع ذلك فإن التعليم الإسلامي التقليدي في الأزهر -مثلاً- لم يرحِّب بكتابات الفكر الإسلامي، لذلك أنشئت كلية دار العلوم في القاهرة أساساً لتكون بديلاً عن الأزهر في تعليم العربية والإسلام، قبل أن تضم إلى جامعة القاهرة. ولذلك تخرج في هذه الكلية كثير من العلماء الذين عرفوا في ميدان الفكر الإسلامي، وكانت كتبهم كتباً في الفكر الإسلامي في ميادين عديدة من الدراسات الفقهية والقرآنية، وغيرها من الدراسات الأدبية والسياسية والاقتصادية. ولعلّ من الإنصاف هنا الإشارة إلى أن عدداً من علماء الأزهر كانوا مفكرين كباراً، نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور محمد البهي.

ولا يزال من أهل العلم في الدائرة الإسلامية من لا يرتاح للحديث عن الفكر الإسلامي، مفضلاً الحديث عن العلوم الإسلامية في أطرها التقليدية التي ظهرت في القرون الخمسة الأولى. وسوف نجد من يرى أنَّ العلم هو ما قال الله وقال رسوله، وسوف نجد من يرى أنَّ العلم هو علم العقيدة، وغيرُهُ من العلوم تَبَعٌ له، ومن يرى أنَّ العلم هو الفقه، والأصول هي منهجٌ لاستنباطه، وسوف نرى من يعطي الأولوية لتحقيق المخطوطات ونشرها، وهكذا. وسوف نجد أن كثيراً من هؤلاء يرون مصطلح الفكر هو نكوص عن العلم الحقيقي، وأنَّ التركيز

على الفكر الإسلامي القائم على النقد العقلي والنظر المقاصدي، هو استخفاف بالنصوص وهروب من استحقاقاتها.

ومع كل هذا التحفظ لدى فئات من أهل التخصص في علوم الشريعة التقليدية، فإنَّ نماذج من المؤلفين والكتاب والنشطاء لا يُشك في انتسابهم الإسلامي، ومرجعيتهم الإسلامية، وجهادهم وتضحياتهم من أجل رفعة شأن الإسلام والدفاع عن قضايا المسلمين، أنجزوا إنجازات مقدرة من العطاء العلمي والفكري والعملي، وجاءوا من تخصصات متنوعة، فكان منهم عسكريون محترفون، وكان منهم مهندسون وأطباء، وعلماء من تخصصات الكيمياء والفيزياء وعلم النفس وغير ذلك.[1]

إن هذا التنويه بالشخصيات الإسلامية التي عرفت في مجال "الجهاد الفكري" منذ مطلع القرن العشرين، ينبغي أن لا يلفت انتباهنا عن حقيقة أن بعض من عُرف في ميدان الفكر الإسلامي، أو حاول أن يعرِّف بنفسه في هذا الميدان، كانوا دخلاء على الفكر الإسلامي، وأشعلوا في ميدانه معارك هامشية، لكنها استغرقت كثيراً من الجهد والوقت، وربما كانت جهود بعضهم ناتجة عن اجتهادات خاطئة، ومحاولات مخلصة ينقصها العلم، ولكن بعضها الآخر كان عملاً مدبراً ماكراً، يقصد به الإسهام في إحداث البلبلة والفوضى الفكرية في المجتمعات الإسلامية.

## سادساً: الفكر والعاطفة

البناء الفكري ليس جدلاً فكرياً جافاً، خالياً من العاطفة والمشاعر، وإنما هو إيمان يدفع إلى العمل؛ إنَّه حالةٌ عقلية ووجدانية تنبثق عنها أشكال من السلوك

(١) مِنْ حقَّ هؤلاء أن يُشار إليهم، ويُعرَّف بهم، ولا سيّما للأجيال الجديدة من أبناء الأمة. ويستطيع القارئ أن يتذكر عدداً من أسماء الشخصيات الفكرية في بلده، وربما يلاحظ أنَّ التميز في الفكر الإسلامي لم يقتصر على أهل العلم والتخصص في علوم الشريعة، ولكنَّه شمل علماء ومفكرين من مختلف التخصصات، وربما يحلو للقارئ أن يجري تمريناً ذهنياً يعقد فيه مقارنة بين عدد المفكرين من فئة التخصص الشرعي وغيرهم من التخصصات الأخرى.

والتعامل مع الأفكار والأشياء والناس، وإذا كان الفكر هو وَعْيُ الإنسان بذاته وبالمحيط من حوله، فإنَّ مشاعر الإنسان هي عنصر أساس من عناصر الذات البشرية، فالوعي على هذه المشاعر لا يقل أهمية عن الوعي بالعلم والمعرفة اللازمة لاتخاذ القرار المناسب، أو القيام بعمل محدد.

هل الأفكار مجردة عن المشاعر، وهل يمكن تجريدُها عنها، وهل ثَمَّة مصلحةٌ في أن يحدث هذا التجريد لو أنَّه كان ممكناً؟!

عندما تَحْكُمُ على فكرة ما بأنها جيدة أو سيئة، وعندما تُقَرِّرُ أنّ تلك الفكرة تتَّصف بأنها إيجابية أو سلبية، ألا يعنى ذلك أنك تجيب عن سؤال: كيف تَشْعُر إزاء تلك الفكرة؟!

عندما يكون عليك أن تقوم بعمل من الأعمال، ألا تَشْعُر بفرق كبير، بين أن تُفْرَضَ عليك فكرة معينة لتقوم بذلك العمل بموجبها، وأن تَخْتَار بنفسك تلك الفكرة؟!

كتب محمد عبد الله دراز تحت عنوان: "إقناع العقل وإمتاع العاطفة": "وفي النفس الإنسانية قوَّتان: قوَّةُ تفكير، وقوَّة وجدان؛ وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقِّب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجِّل إحساسَها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين. فيؤتيها حظَّهَا من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا... وكل امرئ حين يُفَكِّر فإنَّما هو فيلسوف صغير. وكل امرئ حين يُحِسُّ ويشعر فإنَّما هو شاعر صغير... فالذي ينهمِكُ في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، ... هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب: فإذا رأيتَه يتَّجِهُ إلى تقرير حقيقة نظرية، أو وصف طريقة عملية، قلتَ: هذا ثمرة الفكرة، وإذا رأيتَه يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها، وقبضها أو بسطها، واستثارة كوامن لذتها أو ألمها، قلتَ: هذا ثمرة العاطفة، وإذا رأيتَه قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر، فتفرّغ له بعد ما قضى

وطرَه من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

"وأمّا أن أسلوباً واحداً، يتجه اتجاهاً واحداً، ويجمع بين يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصنُ الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد، والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس البشرية... ذلك ربُّ العالمين... وهو القادر على أن يخاطب العقلَ والقلبَ معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان، ولا يبغيان... وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟ أوَ لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب، من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]"[١]

روى البخاري في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان"[٢] وهذا الحديث الشريف أساس في فهم العلاقة بين الفكر والعاطفة. وروى الأمام أحمد في الموضوع نفسه قوله ﷺ: "حُبُك الشيءَ يُعْمي ويُصم."[٣]

(١) دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم**، تقديم عبد العظيم المطعني، الكويت: دار القلم، ط٩، ٢٠٠٥م، ص ١٤٨-١٥١

(٢) البخاري. **صحيح البخاري**. مرجع سابق، "حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن عمير سمعت عبد الرحمن بي أبي بكرة قال: كتب أبو بكرة إلى ابنه -وكان بسجستان- بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فإنِّي سمعت النبي ﷺ يقول: "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان." كتاب الأحكام. باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، حديث رقم ٧١٥٨ صفحة ١٧٦٨.

(٣) أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م، كتاب الطب، باب في الهوى، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ٥١٣٠، ج٤، ص٣٣٦.

تقول مؤلفة كتاب "إدارة التفكير": إنَّ المشاعر تُجَسِّد العلاقة بين العقل والروح. وهذه العلاقة تعبر عن الوعي بالذات: "فالمفتاح هو الوعي بالذات؛ إنَّه التحكُّم في الذات؛ إنَّه التركيز على الهدف الذي تحدِّدُه الذات، وهذا يتطلب منك أن تقدِّر المعادلة التي تكوِّن ذاتك؛ إنَّها العلاقة الوثيقة بين العقل والروح والجسد. أليست هذه هي الحالة الطبيعية التي تشعر فيه بالروعة والسعادة، وتشعر بقدرتك على التركيز وأنك مفعم بالطاقة، والقوة، والثقة؟! ألم تلاحظ أن الأمور التي كانت تغيظك قد اختفت، وأنك تستطيع أن تفكر بوضوح؟!"[1]

وتشَبِّه المؤلفةُ عملية الوعي بالذات وفق هذه المعادلة، برقصة دائرية يمكن أن تبدأ هذه العملية في أي موقع في هذه الدائرة. فقد يختار الفرد أن يبدأ بتطوير الأفكار وهذا يحَسِّن من حالته النفسية، ويجعلُه أكثر نجاحاً في اختيار طعامه وشرابه، وفي طريقة تناوله، وفي ممارسته للتمارين الرياضية التي تنمي روحه. وقد يختار أن يبدأ بتنمية طاقته الجسدية مما يساعد على تنمية روحه، وينعكس ذلك على وضوح أفكاره وعواطفه، وقد يختار أن ينشغل بالروح أولاً، فينعكس ذلك إيجابياً على أفكاره وطاقته النفسية والجسدية، المُهِمُّ: "عليك أن تختار أن تبدأ، عليك أن تبدأ وحسب!"[2]

من الأمور المعروفة أن الإنسان عندما يكون قلقاً، أو غاضباً، أو مُحبطاً، أو خجولاً، ويصارع مشاعر الألم، وخبرات المراراة، كل ذلك حالات تعيق القدرة على التفكير المتزن. وثمة مراجع وكتب كثيرة تتحدث عن العلاقة بين الأفكار والمشاعر، لا سيما في ميدان علم النفس العلاجي. وأحد هذه الكتب بعنوان: "الأفكار والمشاعر: كيف تضبط مزاجك النفسي

(1) Lore, Mary. *Managing Thought: Think Differently. Think Powerfully. Achieve New Levels of Success*, New York: McGraw-Hill, 2010. 204.

(2) Ibid., p 225.

وحياتك."[1] ويقوم الكتاب على رؤية بسيطة تشكل قلب العلاج المعرفي للسلوك، "تستطيع أن تغير مشاعرك بتغيير أفكارك".

إن حالات الشعور التي تنتاب الإنسان مثل القلق، والغضب، والخوف، والإحباط، والعجز عن الوصول إلى الكمال، والعادات السيئة، والخجل، إلخ، تقود الإنسان إلى مشكلات كثيرة وعجز عن ممارسة الحياة بصورة طبيعية، وربما تقود بعض الناس إلى الانتحار، مع العلم بأن لكل حالة من هذه الحالات إمكانيات علاجية مناسبة. والكتاب في مجمله تمارين ترشد الإنسان إلى كيفية ضبط مشاعره المَرَضِيَّة، والتحكم بما يصاحبها من أعراض جسدية مؤلمة، وممارسة معالجتها بالتمارين المناسبة، حتى يتمكن من القيام بأعماله ومهماته بصورة طبيعية، ويتخذ قراراته في الحياة بصورة ناجحة.

ويشير مؤلفو الكتاب إلى أن مئات البحوث التي أجريت خلال الثلاثين عاماً الماضية قد أثبتت هذه "البصيرة"، وأنه يمكن بالفعل تطبيقها لتحرير الإنسان من عدد كبير من المشكلات أكثر من أي وسيلة علاجية أخرى.[2]

ومن المهم أن يراقب الإنسان بقدر من الهدوء كيف تقوم المشاعر بتشويه التفكير، وتقوده إلى مغالطات في تفكيره تعمق من المشاعر النفسية التي بدأ بها. فإذا ما سلك وصفات العلاج المناسبة، فإن ذلك سوف يعينه أن يفكر تفكيراً متزناً راشداً ويتخذ قرارات صائبة.[3]

---

(1) McKay, Mathew; Davis, Martha and Fanning, Patrick. *Thoughts and Feelings: Taking Control of Your Moods and Your Life*, New Harbinger Publications; Fourth Edition, 2011.

(2) Ibid., p 2.

(3) Ibid., p 115.

ومن شعر إيليا أبو ماضي:

أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا لولا الشعورُ الناسُ كانوا كالدمى

لاح الجمالُ لِذِي نُهَىً فأَحبَّهُ ورآه ذو جهلٍ فظنّ ورَجَّما

لا تطلبنَّ محبةً من جاهلٍ المرءُ ليس يُحَبُّ حتى يُفْهَما

ويرى مالك بدري أن الحالة الانفعالية هي أحد الأبعاد المؤثرة في تفاوت الأفراد في درجة التفكر، "فالتفكر يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية... وهناك العديد من الأبحاث التجريبية التي تؤكد أن التركيز الذهني وحل المشكلات، يضعف مع ازدياد التوتر والقلق." وتكون الحالة النفسية أحياناً حالات مَرَضية واضحة، فالعصابيون مثلاً تكون قدرتهم على التفكير والتدبر ضعيفة، والذين ابتلاهم الله بالذهان أو الجنون أو التخلف العقلي أو بذهان الشيخوخة (الحزن) لا يستطيعون التفَكُّر والتدبر.[1]

سبق أن ذكرنا بعض الأمثلة على مواقف التفَكُّر والتذكر والتدبر في القرآن الكريم، لكن أمثلة العواطف والمشاعر والانفعالات في القرآن الكريم لا تقل أهمية في توجيه النفس وتوازن الشخصية البشرية، فما لم تتفاعل المدركات العقلية والمعتقدات الفكرية مع الحالة الانفعالية، فإنه يخشى أن يغلُظ القلب، وتضعف علاقات المودة والأخوة والرحمة بين الناس. والقرآن الكريم مليء بتأكيد المحبة، والمودة، والرأفة، والبر، والإحسان، والرحمة: بين الزوجين، وبين الوالدين والأبناء، وبين أولي القربى، وبين الإخوة في الإيمان، وحتى بين الشركاء في الإنسانية، فضلاً عن الرحمة والرأفة بالحيوان. وقد امتَنَّ الله سبحانه على الرسول

(١) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية**. هيرندن-فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، ص ٩٠-٩١

ﷺ، بأن جعله لَيِّنَ القلب تجاه أصحابه، فجمعهم حوله، وطلب إليه أن يعفو عنهم ويستغفر لهم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ونذكِّرُ في هذا المقام أننا أوضحنا من قبل علاقة الفكر بالإرادة والعمل كما نجدها في التراث الإسلامي.

ومن المهم أن لا ننسى أن التمييز بين العقل والقلب، من حيث الوظائف -كما نجدها في معظم المراجع الحديثة- لا يبدو متفقاً مع ما نفهمه من القرآن الكريم. فهذه المراجع تجعل العقل أداة للفهم والإدراك والعلم والمعرفة، بينما تجعل القلب مكاناً للمشاعر والعواطف والانفعالات، وتجعل موقع العقل في الدماغ، وتتحدث عن تشريح الدماغ، وتحدد مواقع مختلفة فيه لأنواع محددة من الإدراك. وثمة دراسات أخرى تربط بين العقل والقلب في نوع من التفاعل، ولكنها دراسات خجولة إذا قورنت بالنمط العام من الدراسات التي تتحدث عن الدماغ.

إن القرآن الكريم حاسمٌ في اعتبار القلب أداةَ الفهم والفقه والعقل والإدراك، ومن ثم الإيمان أو الكفر، فكما أن العين أداة الإبصار، والأذن أداة السمع، فإن القلب أداة الفقه والعقل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. فالقلوب التي في الصدور هي التي تعقل وليس الدماغ الذي في الرأس. وفي آية سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نجد أن القلب هو الذي يفقه وليس الدماغ. وفي آية المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾[المائدة: ٤١] نجد أن القلوب هي التي تؤمن، والقلوب التي لا يدخلها الإيمان تكون قلوباً

غُلْفاً طبع الله عليها بسبب الكفر، فلا يدخلها الإيمان. وذلك صريحُ قولِهِ سبحانه في سورة النساء: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وهكذا فإن القلب هو جهة حمل المسئولية، سواءً في الفهم والفقه والإدراك والتعقل؛ أي فيما يشار إليه بالعلم والمعرفة والفكر، أو في الحب والكره، والخوف والرجاء، والقنوط والأمل، والرعب والطمأنينة، وغير ذلك من الانفعالات والمشاعر والعواطف. وكل ذلك نجده صريحاً في القرآن الكريم. وليس عجباً أن نجد حديث رسول الله ﷺ حاسماً أيضاً في أن مناط الصلاح والفساد هو القلب، كما ورد في الحديث المتفق على صحته: (ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.)(١)

إنَّ مرجعية النصوص الشرعية، من قرآن كريم وسنة نبوية، في مسؤولية القلب عن الإيمان والكفر، والهداية والضلال، ليست موضع شك. أما الدراسات العلمية والتجريبية في علم النفس، وعلوم الأعصاب، والتشريح، والفيزيولوجيا وغيرها من العلوم الطبية... فإنها تقدم معرفة ظنية، تتقدم مع الزمن، ويصلح بعضها للاستئناس به في مرحلة معينة، ثم يتواصل التقدم، فنفهم شيئاً مختلفاً عما فهمنا من قبل. وهذا لا يعنى إهمال ما تفيدنا به هذه العلوم، التي ربما تزيدنا معرفة ويقيناً في فهم الآفاق الكونية والأنفس البشرية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣] بل على العكس من ذلك إن التبحر في الدراسات العلمية هي من باب السير والنظر والسعي، وكلها من متطلبات الاستخلاف الحق في هذه الأرض، وأي تقصير في القيام بهذه الأمانة هو تعبير عن التقصير في استلهام الهداية الذي يدعو إليه القرآن الكريم.

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، باب فضل من استبرأ لدينه، ص٢٠، حديث رقم (٥٢).

**خاتمة :**

تتبَّع هذا الفصل مادة الفكر في المصادر الإسلامية، وتبين لنا أن القرآن الكريم اختار أن يعرض فِعْلَ الفكر في أعلى مستوياته وهو التفكر، وتبين لنا أن الفكر عنصر أساس في كل من الإيمان والعلم والعمل، وأن الفكر هو كذلك فعل أساس في تحقيق القيم العليا التي جاء الدين من أجلها، وهي التعريف بالله الحق (التوحيد)، وبناء الشخصية الإنسانية والمجتمع الإنساني على أساس التقوى (التزكية)، وقيام الحضارة البشرية في جوانبها المعنوية والمادية (العمران).

ولاحظنا أنه يندر أن نجد مؤلفاً من مؤلفات التراث الإسلامي لا يؤكد ضرورة التفَكُّر والتدبر، بل إن هناك بعض المؤلفات جعلت من الفكر موضوعاً لها، أو فصلاً من فصولها، فتحدثت عن الفكر والتفكر، والعقل والتعقل، والذكر والتذكر. كما فعل الحارث المحاسبي والغزالي وابن القيم وغيرهم. كما لاحظنا أن تاريخنا الإسلامي عرف عبر القرون نماذجَ من العطاء الفكري الإبداعي في الميادين كافة، فكانت بذوراً فكرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، منذ الجاحظ ومروراً بالمحاسبي والقابسي، ثم الماوردي والزرنوجي، ووصولاً إلى ابن خلكان وابن خلدون وغيرهم، كل في مجاله وتخصصه. وقد استدركنا على بعض التصورات الخاصة بالفكر البشري، لا سيما تلك التي تفصل بين الفكر والعاطفة، أو بين العقل والقلب، أو تلك التي اختلط على أصحابها معرفة أداة الفكر والعقل في الكيان البشري.

نأمُل أن نكون قد مهدنا بهذا الفصل للحديث عن البناء الفكري لدى الإنسان الذي سوف يتصف بالفكر، فيكون مفكراً، وتتحقق فيه مستويات من البناء الفكري، والعوامل المؤثرة في خصائص هذا البناء، وستكون الفرصة سانحة لتعرُّف الحدود والمساحات المشتركة بين ذلك

الإنسان الذي اكتمل بنيانه الفكري، فجاز وصفه بالمفكر، والآخر الذي يوصف بأنه عالم أو مثقف أو فيلسوف أو غير ذلك من الصفات.

obeikan.com